(حيـــاة) بلابسي

للأستاذ نجاتي صدقي

عثر رجال الهلال الأحمر، بعد مجزرة دير ياسين على جثة فتاة في قميص النوم، ملقاة بالقرب من طريق فرعية مؤدية إلى القرية، فتعرف عليها بعضهم فإذا هي المعلمة حياة بلابسي.

عرفتها في أواخر سنة ١٩٤٧ وقت أن قدمت للإذاعة موضوعاً أدبياً أرفقته بكتاب تقول فيه: «أرجو أن أتمكن من إذاعة حديثي هذا في أقرب فرصة ممكنة».

وبعد أيام من ورود هذا الحـديث قابلت أحد قضاة القدس فذكرني (بحياة) وأوصاني بها خيراً... ثم قابلت أحد مفتشي معارف فلسطين فنبهني إلى حديث (حياة) وضرورة الاعتناء به... ثم قابلت أحـد أدباء القدس فقال لي: ألا تهتم بحياة وأحاديثها فهي فتاة تحتاج إلى مساعدة وتشجيع... ثم قابلت مديرة مدرسة في يافا فسألتني إذا كنت قد تلقيت حديثاً من (حياة) واستفسرت عن مدى استعدادي لمساعدتها.

فساءلت نفسي: من تكون حياة بلابسي هذه؟.. وما الداعي إلى كل هـذا الاهتمام بها؟.. وأخذت أترقب الفرصة لمقابلتها والتعرف إليها عن كثب.

وفي عصر أحد أيام يناير من هذه السنة، وكان الثلج يتساقط بكثرة في القدس، والرياح الباردة العاتية تعصف بشدة، دخلت علي حياة وقد تدثرت بمعطف بسيط، ولفت رأسها بمنديل من الصوف وقـد رصع بقطع صغيرة من الثلج، فظهرت وكأنها أكاليل من زهر الليمون، رمز العفة والطهارة، يطوق رأسها الجميل.

وفي هذه المقابلة عرفت منها مأساتها:

لقد فقدت أباها منذ أمد غير بعيد، ووالدتها كسيحة طريحة الفراش، وأختها صغيرة غير قادرة على العمل، فوقع على عاتقها عبء الاعتناء بوالدتها وأختها، والقيام بجميع شـؤون البيت، والعمل في الوقت ذاته على كسب المعاش إذ لا مورد لأسرتها تعتاش منه، كما أن والدها لم يترك أي مبلغ من المال، أو أي نوع من العقار.

وهكذا رأت نفسها مضطرة إلى ترك المدرسة قبل أن تحصل على شهادة (المتريك)، وأن تسعى إلى العمل كمعلمة إضافية في مدرسة ابتدائية، فقيل لها في دائرة المعارف: ليس بوسعنا أن نجد لك مكاناً شاغراً في القدس لكننا نحتاج إلى معلمة إضافية لقرية دير ياسين، فقبلت حياة العمل لقـاء راتب شهري قدره ثمانية جنيهات.

وقرية دير ياسين تقع إلى الغرب من القدس وعلى بعد عشرة كيلومترات منها، وطرق المواصلات إليها غير متوفرة، فكانت

فيبتدئ شعره بإنكار الغزل، كقول الشاعر عبد الرحمن شوقي يمدح سيادة الحسيب النسيب السيد علي الميرغني.

وقفت ولم أنسب ولم أتغزل ... ولم أشك حالي في الهوى وتذللي (١)
ولم أبك دارا قد عفت وتغيرت ... وصحبا كراما بت عنهم بمعزل
ومثلي إذا جن الظلام رأيته ... يقوم قيام الناسك المتبتل
يقولون حب الغيد تيم قلبه ... وما حب ربات الحجا عنك مشغلي
وما في فؤادي موضع لمحبة ... لغيرك حتى قال ذلك عذلي

على أني سأوفي هذا المعنى حقه عنـد الحديث عن الغزل، وإن كنت أبادر فأقول: إن جريان الغزل على ألسنة كثير من هؤلاء الشعراء، وخاصة أولئك العلماء الأعلام، من أمثال شيخ علماء السودان سابقاً الشيخ أبو القاسم أحمد هاشم، والشيخ عمر الأزهري، والشيخ البنا وغيرهم، أقول إن هذا مما لا يدع شكا في سلطان التقليد على الشعراء.

ولست أريد من هذا أن أحط من قيمة الشعر السوداني، ولكني أقصد أن السمة الغالبة عليه في هذه الحقبة سمة الاحتذاء والمتابعة، والتقليد فيه خير كثير، وفيه كذلك شر كثير. وإن في هذا الشعر لوثبات طيبة، وملامح مشرقة، سنكشف عنها في أثناء هذا الحديث، كما أن سير الشعراء في ركاب القدامى جعلهم يبعدون بأشعارهم عن تصوير الأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ولم يجعل لوصف الطبيعة السودانية الخلابة مكانها البارز في أشعارهم.

(للحديث بقايا)

علي العماري
مبعوث الأزهر إلى المعهد العلمي بأم درمان

(١) (الرسالة) تنظر هذه القصيدة نظرة إعجاب إلى قصيدة حافظ في مدح الشيخ محمد عبده ومطلعها:

ميحتك لم أنسب ولم أتغزل ... ولما أقف بين الهوى والتذلل

حياة تضطر للذهاب إليها والعودة منها سيراً على قدميها ، فتترك القدس في الساعة السادسة صباحاً مجتازة في طريقها بعض أحياء القدس اليهودية وهي ميا شعاريم ، وبيت إسرائيل ، ومحنا يهوداً ، وروميا ... ثم تمر بواد وعر إلى أن تصل مستعمرة بيت هاكيرم ، ومن ثم تتجه رأساً إلى دير ياسين .

هذا هو طريق الآلام الذي كانت تعبره حياة مرتين في اليوم صيفاً وشتاء .

وهي مع أنها صبية جريئة كانت تشعر أحياناً برهبة عند مرورها في الوادي ، فتخشى أمراً لا تعرف كنهه ... فتنتظر بعض الوقت إلى أن تمر بها القرويات الذاهبات إلى القرية أو العائدات منها فترافقهن ... إلا أن هذه الخشية أخذت تتلاشى قليلاً قليلاً ، وصارت حياة تعبر الوادي بمفردها محيية الحراثين والرعاة ، فيجيبونها محيين مرحبين ، مشفقين منها عن أولادهم ومقدار تقدمهم ونجاحهم في دروسهم ، سائلين الله أن يكلأها بعين عنايته ورعايته .

ولم تحصر حياة عملها في القرية على التعليم وإنما كانت تعمل في فترات من النهار ممرضة أيضاً ، فتعد من هو بحاجة إلى الإسعاف الأولي بمختلف الأدوية ، وتعود المرضى في أكواخهم ، وإذا رأت أن فيهم من تتطلب حالته دخوله المستشفى اتصلت على الفور بدائرة الصحة في القدس تلفونياً ، أو ذهبت بنفسها إلى تلك الدائرة عند عودتها إلى بيتها .

وما إن أتمت حياة السنة الأولى من عملها في دير ياسين حتى غدت معبودة سكانها يترادف اسمها مع التربية والطهارة والوطنية الصحيحة .

وفي ذات يوم عادت الفتاة إلى القدس فوجدت أمها قد فارقت الحياة ، فتحملت الصدمة بقلب قوي ، ولم تنهزم أمام صروف الدهر القاسية وثابرت على عملها في دير ياسين بما طبعت عليه من عزيمة وثبات ، فحمل ذلك دائرة المعارف على أن تزيد راتبها الشهري جنيهين آخرين .

وأعلنت هيئة الأمم المتحدة تحقيق ما حلم به هرتزل سنة ١٨٩٥ في كتاب (الدولة اليهودية) ، فهب العرب يدافعون عن أراضيهم ومواطن معيشتهم ، وانتصب ملاك الموت والحصد في يده يجني الرؤس آحاداً ، ثم عشرات ، ثم مئات ... وكان على حياة أن تختار أحد أمرين : إما أن تقبع في بيتها تنتظر حظها من الزواج ، وإما أن تسكن دير ياسين لتتابع كفاحها في سبيل العلم والصحة .

ولم تتردد الفتاة كثيراً فحملت بعض أمتعتها وسرحلت إلى القرية ، وسكنت في غرفة من غرف مدرستها .

وفي هذه القرية عانت المعلمة أنواعاً شتى من الحرمان وشظف العيش ... أما الضوء فكان مصباح الزيت ... وأما التدفئة فكان الحرام تلفه على نفسها وهي تراجع الدفاتر ، وتعد الدروس .

وانتشرت الحوادث بسرعة إلى أن شملت دير ياسين أيضاً ... ولما كانت هذه القرية محاطة بأربع مستعمرات يهودية ، خشيت خيانة جيرانها فألفت من فتياتها وفتيانها حامية وكانت حياة من أركانها .

قالت لي ذات يوم بينما كنت أتدرب على إطلاق النار من البندقية أن أخطأت الهدف وراحت الرصاصة تزغرد في مستعمرة مجاورة ! . .

ومضت أيام وأسابيع تآزمت في أثنائها العلائق بين دير ياسين والمستعمرات التي حولها ، ولم يدر القرويون أن القيادة اليهودية قد اختارت قريتهم كبدء مرحلة جديدة في خططها «العسكرية» .

وعند الساعة الثالثة من صباح يوم قاتم أطبق ألفان من اليهود المسلحين بالبنادق السريعة الطلقات والخناجر ، على سكان القرية النيام ، ونشبت بينهم وبين الحامية معركة لم تدم طويلاً ، فتغلب المعتدون على المناضلين القرويين ، وبدأت المجزرة ! . .

أما حياة فما إن سمعت أزيز الرصاص وانفجار القنابل حتى هبت من فراشها وهي في قميص النوم ، وهامت على وجهها في الحقول وبين التلال ... وبعد لحظات وجدت نفسها في مكان أمين خارج القرية ، وبوسعها الالتجاء إلى قرية عربية أخرى ... إلا أنها سمعت في هذه الآونة أنيناً بالقرب منها ، فاتجهت إلى مصدره وإذا هي أمام جريحين من حامية دير ياسين ، فتقدمت منهما ، ومزقت جزءاً من قميصها ضمدت به جراحهما ، ثم قر رأيها على أن تضعهما في مغارة في تلك الناحية إلى أن تتمكن من إخبار رجال الهلال الأحمر عنهما ، فحملت أحدهما على كتفها وسارت به نحو المغارة ... وبعد مسير عشرة أمتار مزق الجو صوت طلقات سريعة فسقط الجريح قتيلاً ، وسقطت حياة فوقه مضرجة بدمائها .

أما الجريح الثاني فقد قدر له أن يعيش ويروي خاتمة حياة فتاة تذوقت الجهاد في سبيل العلم ، والأمى في سبيل العائلة ، والبطولة في سبيل الوطن ! . .

نجاتي صدقي